لهوى

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد السادس والثلاثون العدد الثاني لسنة ٢٠٠٩م

WWW.ATTAWEEL.COM

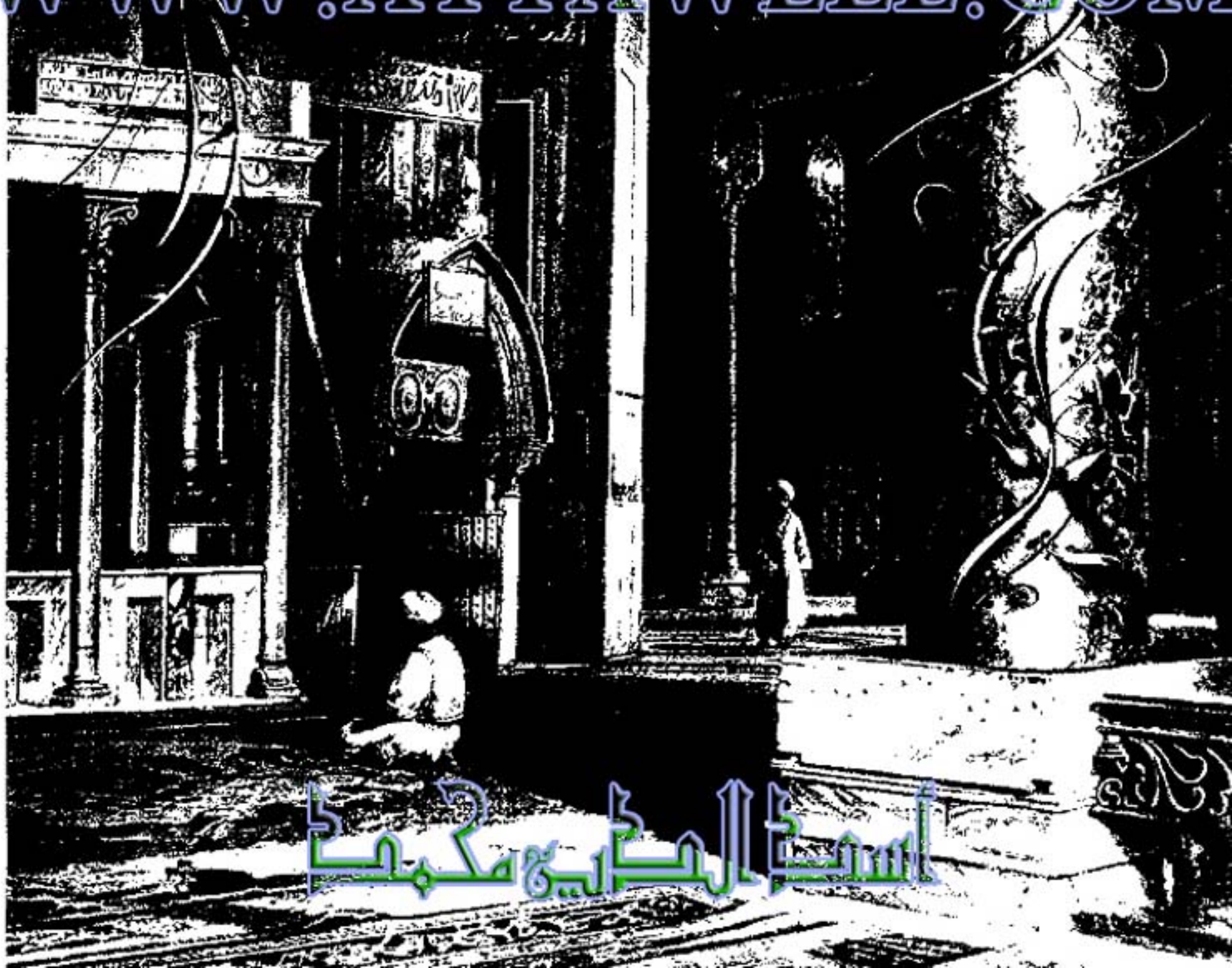

أسعد الحكيم

ظاهرة الجنون في الشعر الصوفي

د. قيس كاظم الجنابي

توطئة:

الجنّ في اللغة: ولد الجان، وهم نوع من العالم سموا بذلك لاجتنابهم عن الأبصار، ولأنهم استجنوا من الناس فلا يرون. والجمع جنان ويقال: جن الرجل جنوناً، وأجنه الله فهو مجنون:

رأيت نضو أسفار أمية شاحبا
على نضو أسفار، فجن جنونها[1]

وتعتقد العرب بأن ثمة علاقة بين العبقرية والجن، وأن موضعاً كثير الجن يسمى (عبقر)، قال لبيد:

ومن فاد من إخوانهم وبنيهم
كهول وشبان كجنة عبقر[2]

لذا قرنوا الشعر بالعبقرية والشياطين، واعتقدوا بأن لكل شاعر شيطاناً يلقي أليه الشعر، أو أن للشاعر تابعاً أو رئياً[3]. حتى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تطر إلى زهير بن أبي سلمى وقال: (اللهم أعذني من شيطانه)[4]. فجعلت العرب لكل شاعر شيطاناً يلهمه الشعر، فكان لأعشى قيس شيطان اسمه مسحل، ولعمرو بن قطن شيطان اسمه جهنام، ولعبيد بن الأبرص شيطان اسمه هبيد وللنابغة الذبياني شيطان اسمه هادر، ولامرئ القيس شيطان اسمه لافظ بن لافظ، ولحسان بن ثابت شيطان اسمه الشيصبان، وللمخبل شيطان اسمه عمرو، وللفرزدق شيطان اسمه عمرو أيضا، ولبشار بن برد شيطان اسمه شنقناق[5].

فإذا كان ثمة علاقة وطيدة بين الشعر والجن، فقد كان للجن شعرها وتوابعها، وكذلك هو حال الشعراء الذين تمتعوا بالعبقرية، واستلهموا قصائدهم من وحي الشعر، فتفتقت قرائحهم عن رئي الشعر، وتكهنات الكهان حتى أن الشاعر كثيرا ما كان يتقمص دور الكاهن، فقد كان بعض الشعراء إذا أراد الهجاء دهن أحد شقي رأسه، وارخى إزاره، وانتعل نعلا واحدة[6]. محاكيا بذلك هيأة الساحر، أو الكاهن، ومؤديا طقسا كهنوتيا يجمع بين الشعر والكهانة واستثمار العلاقة بالجن والهواتف لشحذ القريحة من اجل الاضرار بالخصم، مع اقتفاء لروح ومنزلة ووسائل الكهانة والسحر حتى يسهل عنده قول الشعر، ويصبح اكثر تاثيرا وانتشارا وإيغالا في دحر المهجو.

ظاهرة الجنون في الشعر العربي:

إذا كان الشعر يرتبط بالجن والشياطين بهذه الطريقة، فأن الشعر العربي ربط ربطاً واضحاً بين العشق والجنون، فقد لقبوا قيس بن معاذ، الذي يقال له: قيس بن الملوح بالمجنون، أو مجنون بني عامر، ولم يكن قيس مجنونا، وإنما جننه العشق لذهاب عقله من شدة عشقه[7]، وأنشد:

WWW.ATTAWEEH.COM

يسمونني المجنون حين يرونني
نعم بي من ليلى الغداة جنون

وقيل سمي بالمجنون لقوله:

وإني لمجنون بليلى مُوَكَّلُ
ولستُ عزوفاً عن هواها ولا جَلْداً[8]

ولعله سمي بذلك لتوهمه بسماع هاتف يصيح: (يا ليلى) في ليلة ظلماء[9]. والهاتف له علاقة بالجن والرئي، فكأن الحب يوصل بين جانبين مختلفين، أحدهما مرئي والآخر مستتر يتوارى خلف الأوهام، لذا زال عقل المجنون وامتنع عن الأكل والشرب، فعرف انه جن وذهب الحب بعقله[10]. ثم أضافوا اليه شعراء آخرين وصفوهم بالجنون، فقالوا: كان معاذ بن كليب مجنونا، وكان يحب ليلى، وشركه في حبها مزاحم بن الحارث العقيلي، فقال مزاحم يوما للمجنون:

كلانا يا معاذ يحب ليلى
بغيٌّ وفيك من ليلى التراب

شركتك في هوى من كان حظي
وحظك من مودتها العذاب

لقد خبلت فؤادك ثم ثنت
بقلبي فهو مخبول مصاب[11]

وكانوا يرون بأن العشق إذا استولى على صاحبه تركه ذاهلا شبه المغشي عليه لا يسمع ولا يبصر إلا حبيبه، فيفر عن كل شاغل يشغله، فيكون في سائر أحواله معرضا عن أحوال العقلاء شبه مجنون، ورأوا أن العشق عشق الهي، وأن العشق جنون، والجنون فنون، وانشدوا:

ولقيت في حبك ما لم يلقه
في حب ليلى قيسها المجنون

لكنني لم اتبع وحش الفلا
كفعال قيس والجنون فنون[12]

ورأوا أن العشق هو أعظم ما في المجانين، وانه يصرع صاحبه ما يصرع مرض الصرع صاحبه، فقال أحدهم:

قالت جننت على رأسي فقلت لها
العشق أعظم مما بالمجانين

الحب ليس يفيق الدهر صاحبه
وإنما يصرع المجنون في الحين[13]

وان الحب يعلن ما في الإنسان من جزء جني، بوصف الإنس والجن عالمين متقاربين، فإذا استعر الحب أعلن عن الجنون كما في قول الشاعر:

كتمت جنوني وهو في القلب كامن
فلما استوى والحبّ أعلنهُ الحب

وخلاّهُ والجسم الصحيح يذيبه
فلما أذاب الجسم ذل له القلب

فجسمي نحيل للجنون وللهوى
فهذا له نهب وهذا له نهب[14]

فيتقاسم الحب والجنون الجسد، ويلقيان به في حلبة السقم والمرض، حتى يبدو العاشق نحيلا، فكأن الشعر خير من عبر عن حالات الإحساس بالحب والوله والاقتراب من الجنون، لأن إحساس الشاعر قادر على نقل المشاعر الإنسانية والعواطف الجياشة، وهواجس النفس البشرية الملتاعة، هذا فضلا عن العلاقة الخفية الكامنة بين الشعر والجن، التي هي علاقة متصلة باستمرار الحب الذي تلبسته نوبات الجنون والاستغراق التام بالمحبوب. فكان عمر بن أبي ربيعة يوصل بين الحب والجنون فيقول:

ليس حب فوق ما أحببتكم
غير أن اقتل نفسي أو أجن[15]

واتهم عروة بن حزام بالجنون بسبب الحب فقال:

ما بي من خبل ولا بي جنة
ولكن عمي يا أخي كذوب

أقول لعراف اليمامة داوني
فأنك إن داويتني لطبيب

فواكبدا أمست رفاتا كأنما
يلذعها بالمؤقدات طبيب

عشية لا عفراء منك بعيدة
فتسلو ولا عفراء منك قريب[16]

من هنا ارتبط الشعر بالمجانين العشاق والموسوسين، فذكروا عددا كبيرا منهم، يخامرني شك في صحة وجودهم، أولا اكثر، أخبارهم، وثانيا لاحتمال انتحال هذا التراث الشعري على السنة الرواة بعد نشوء مجالس القص، فذكروا منهم:

شحطون الموسوس البغدادي، وأبا غصن سوسنة الموسوس، المجنون الأديب، وطيرون المجنون، وعليان المجنون البصري أو عليانة المجنونة، ومجنون المربد، وماني الموسوس (ت ٢٤٥هـ) واسمه محمد بن القاسم شاعر لين الشعر رقيقه، لم يقل شيئا إلا في الغزل، وماني لقب غلب عليه قدم بغداد أيام المتوكل، وكان من اظرف الناس[17]. فكان يشكل ظاهرة خاصة لاتصاله بالفقهاء والمحدثين حتى قيل إن ابن عمار يجيء بالمجانين فيكتب هذيانهم ويسلطهم على المشايخ فيصفعونهم في الصوامع إذا أدنوا، ومن شعره قوله:

فان لم يقولوا مات أو هو ميت
فزيدي إذا قلبي جننا ووسواسا[18]

وكان الفويرا من عقلاء المجانين يرميه الصبيان بالحجارة فيقول: اما ترى ما يصنع هؤلاء بي ما انا فيه من العشق والجنون، ثم انشد:

جنون وعشق ذا يروح وذا يغدو
فهذا له حسد وهذا له حسد[19]

كما كان سوسنة أبو غصن الموسوس من عقلاء المجانين يقول:

ما أرى غير عذله في سكون
وطمأنينة وفي حسن مس[20]

اما شحطون الموسوس البغدادي، فكان يقول:

يا شيخ قل لي أهنا عدل من المهيمن دل

يا ليت يكون لنا عقل وما لي عقل[21]

وكان جعيفران بن علي بن اصغر الأنباري، المعروف بجعيفران لوسوس، موسوسا فإذا تاب إلى ربه قال الشعر الجيد[22]، فكان علي بن يوسف عنه:

طاف بسبعة من الوسواس
نفسر عنه لسذة النعاس

فمتى يسري بمانس بالأناس
ولا يلذ عشرة الجلاس

فهو غريب بين هذا الناس[24]

والشاعر يرفض هذا الاتهام، ويرى انه بسبب افلاسه وقلة حظه من الدنيا، وهو في هذا يعبر عن نزوع سلوكي خاص يرى في الجنون تمردا على واقع مشحون بالماديات والكذب، لأنهم يجهلون ما به من إحساس خفي، لهذا يدعو صحبه الى الأستئناس بالخمرة، ومن قوله يصف حاله:

رأيت الناس يدعوني بمجنونٍ على حال

ما بي اليومَ من جنٍ ولا وسواسيبلبال

ولكن قولهم هذا لإفلاسي وإقلالي[25]

فكان الناس يرمونه بالوسواس، وهو يهرب

منهم إلى الخمرة:

رأيت الناس يرموني ... أحيانا بوسواسي
ومن يضبط يا صاح ... مقالَ الناس في الناس
فدع ما قاله الناس ... ونـــــازع صفوة الكاس[٢٦]

ويصف الناس بالكذب، لأنهم وصفوه بالجنون وفقدان العقل فيقول:

قالوا علي كذبـــا وبطـــلا
أني مجنونٌ فقـــدتُ العقـــلا
قالوا المحال كذبـــا وجهـــلا
أقـــبح بـــهذا الفعل منهم فعلا[٢٧]

واعترى خالد الكاتب الجنون من الســـوداء، فكان يصحو أحـيانا، ويغمر أحـيانا، فترك العمل مدة، حتى وسوس آخر عمره[٢٨] فكان يقول:

يـا تـارك الجسم بلا قـلب
أن كنـت أبـراك فمـا ذنـبي ؟
يـا مفردا بالحسن افردتني
منك بـــــطول الهجر والعتب
إن تـــك عينـــي أبـــرت فتنة
فهل إلى قـــــلبي من عتب[٢٩]

فالحب يشكل حالة إنسانية متفردة تدفع بالمحب الى التضحـية بـالنفس من أجل حبيبـــه عبر اســـــتعداد خاص في التفاني، لأن الحب يلغي الحواجز بين الأجساد ويوصل بين الأرواح، فيفتح أفقا خفيا في الامتزاج النفسي، لهذا بدت قـصائد الشـعراء العشـاق المجانين معبرة خير تعبـير عن حقيقـة المحبـة مما يجعل سـلوك ونزعات النفس الإنسـانية المولهة أقـرب إلى سـلوك ومشـاعر المتصوفة وهو يخفون تجربـة الحب الإلهي، وبـهذا كان الحب خير وشيجة بين التصوف والجنون. من هنا ارتبط الجنون بالشعور الإنساني والعواطف الإنسانية المتدفقة التي يولدها العشق، لأن الجنون يتكون من مخالطة الجن لعقل الإنسـان، والجموح العاطفي المتوهج يدفع الشـــخصية الإنســـانية الحساســة نحو الانفصال عن واقـعها، والتزاماتها تجاه الآخرين وتقـاليدهم الاجتماعية وعاداتهم وأعرافهم التي تتض من مجموعة من الضوابـــط والقيم الأخلاقية، وهذا ما يجعل شدة العشـق تخترق الحواجز فتدفع الناس إلى وصف العاشـــق بالجنون والمس والوسوسة، مما ينبئ بأن العشق هو أعظم حـــالات التمازج الإنســـاني والاتحاد الروحـي والذي يصبـح لدى المجانين أكثر انفلاتا وتعبـيرا عن حقيقـة الشـوق واللوعة والوجد بالحبيب، وتعامل المحب مع عواطفه تعاملا بعيدا عن رقابـة المجتمع، لأنه اتصال روحـي مثله مثل الحب الإلهي عند المتصوفة، فأصبـح الشـــعر والجنون والحب والتصوف مربعا شعوريا يتصل بـالحدس الإنسـاني وسمو العواطف النبـيلة التي تلغي المسافات وتجمع بين القلوب.

ظاهرة الجنون في الشعر الصوفي:

افرز التصوف والزهد وإيثار العبـادة الخالصة والتفرغ التام ظاهرة خاصة وصفت بالتلبـس والوسوسـة والجنون حـتى أصبحـت شـخصية المجنون رمزا للحب الإلهي وخلقـا صوفيا جديدا حتى قـيل إن عبـارة (أنا ليلى) هي التي أنطقـت الصوفية بـها قيسا، وهي تشبـه عبـارة الحلاج (أنا الحق) لتشابـــه الفناء والاتحاد حـــتى أدخل الصوفية في أخبار المجنون ما يدل على رهف حسه ورقة شعوره وشبـوب عاطفته، فامتدت شخصية قـيس ونمت ودخل نسـيجها في تكوين شـيء من رموز الحب الصوفي[٣٠]. ويشكل الجن صورة لباطن

الإنسان في مقابل ظاهره[٢٤]. بما يديم الصلة بين الإنسان والجن ويجعلها كعلاقة الظاهر والباطن، والعام والخاص عند المتصوفة، فالخاص الصوفي هو باطن متوغل في الأعماق مثله مثل الجن الذي يتوارى عن الأبصار، فقد كان أويس القرني أول من نسب إلى الجنون في الإسلام حين هام على وجهه فلم يوقف له على أثر[٢٢]. وكانت له أفكار في الزهد والأرواح وأراء في تحاب المؤمنين بروح الله وإن لم يلتقوا[٢٣]. ولعل ذلك حصل بسبب إحساسه بخيبة الأمل بعد نشوء الفرق والأهواء والصراعات السياسية، لأن الجنون يمنح الإنسان حرية في التعبير دون نفاق، فكان الجنون نوعا من الرفض السلبي لواقع متقلب، وإدانة خفية لما يجري من أحداث ومناصرات سياسية أدت إلى متغيرات خطيرة في بنية المجتمع العربي- الإسلامي اجتماعيا وثقافيا حتى إن أبا بكر الشبلي (ت ٣٢٤هـ) ظهر وهو يهيج مرددا بعض شعر المجنون[٢٤]. وقيل سمع معتوها يقول: انا مجنون الله، أنا مجنون الله[٢٥]. ولعل ذلك قاده إلى القول:

قالوا: جننت على ليلى فقلت لهم
الحب أيسره ما بالمجانين[٢٦]

وقال أيضا:

باح مجنون عامر بهواه ·
وكتمت الهوى ففزت بوجدي[٢٧]

فكان يحدث في مجلسه مهيبا بشخصية المجنون الرمزية التي تنطوي على البواكير الأولى لتحول الحب العذري إلى حب صوفي، كما انطوت شخصية ليلى على ما اشرب الصوفية المرأة من رموز ودلالات[٢٨] وإلى ذلك يشير أحد المتصوفة:

اشتاقه لا عن مسافة بيننا
ولكن يحن إلى لقاه جناني[٢٩]

وآثر العباد والمتصوفة التظاهر بالجنون لئلا يفصحوا عما يكنون في أنفسهم من هوى ومحبة حتى أصبح الجنون طريق جماعة من السلف، وحال طبقة من صادقي الخلف، اخفوا أنفسهم وأسقطوا منازلهم حتى سموا (عقلاء المجانين)، وهذا من الزهد في النفس وحقيقة التواضع، إلا أنه زهد مجانين الأولياء، وتواضع موقني الضعفاء[٣٠]، فكانوا ظاهرة لافتة للنظر تستدعي من الباحثين البحث والدراسة، فكيف كان الجنون تعبيرا عن موقف ؟.

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١هـ) يتظاهر بالخرس والجنون مرارا ليتفر الناس عنه، ولا يشغلوه عن ربه عزّ وجل، فأقام في صحراء بغداد والعراق وخرائبها نحو خمس وعشرين سنة على التجريد والسياحة حتى كان لا يعرف الخلق ولا يعرفونه[٣١]. وكان ذو النون المصري (ت ٢٤٥هـ) يجيب عن أحد الأسئلة فيقول: ((يا أخي له محبون صغار وكبار ومجانين وعقلاء، فهذا الذي رأيته من مجانينهم والمحبة كتمان بلاء الحبيب بعد الرضا لأن ذلك من السر عنده وحسن الأدب لديه))[٣٢]. ومن هنا كثر عدد العباد والزهاد المتظاهرين بالجنون من أمثال أبي علي المعتوه، وعباس المجنون، وسعدون المجنون، وسمنون المجنون، وبهلول المجنون، ونمير المجنون، وريحان المجنون، والبغدادي المجنون، فهذا أحد العباد في بيت المقدس يقول:

وموهت دهري بالجنون عن الورى
لأكتم ما بي من هواه فما أنكتم

فلما رأيت الشوق والحب بانحا
كشفت قناعي ثم قلت: نعم

فان قيل مجنون فقد جنني الهوى
وإن قيل مسقام فما بي من سقم[43]

وهذا يجيب عن سبب تظاهر المتصوفة بالجنون حتى أصبح موقفا وظاهرة، وكما أتصلت المقابر بالمجانين فأن المتصوفة الذين مالوا الى الجنون أو تظاهروا به مالوا الى سكنى المقابر، لأن الموتى باعتقادهم أقرب من الأحياء إليهم وأكثر منهم سكينة، فقد كان بهلول المجنون(ت١٩٠هـ) يقول: ((أنا عند قوم لا يؤذنني، وإن غبت عنهم لا يغتابونني))[44]. فكان الجنون خير معبر عن توهج العواطف كما النار التي تتلظى فلا تخبو كما وصف ذلك أحد محبي المتصوفة:

جنوني فيك لا يخفى ونـاري فيـك لا تخبو
فأنت السميع والناظ ـــــر والمهجة والقلب[45]

فكان التظاهر بالجنون عند المتصوفة يتوغل ليعقد صلة حميمة بين الحب الإلهي والعبادة الخالصة لله وهذا ما جسده عباس المجنون بقوله:

يا حبيب القلوب من لي سواكا
ارحم اليوم مذنبا قد أتاكا

أنت سؤلي ومنيتي وسروري قد
أبى القلب أن يحب سواكا

ليس سؤلي من الجنان نعيمٌ
غير أني أريدها لأراكا[46]

وكان البغدادي المجنون يقول: ((أنا مجنون الله)) ثم ينشد:

يقولون زرنا وأقض واجب حقنا
وقد أسقطت حالي حقوقهم عني
إذا رأوا حالي ولم يأنفوا لها
ولم يأنفوا منها أنفت لهم مني[47]

وأشار يحيى بن معاذ الرازي المتصوف(ت ٢٥٨هـ) الى اتهامه بالجنون فقال:

أمرت بداء لا يصاب دوائيا
ولا فرج مما أرى في بلائيا

يقول يحيى جُنَّ من بعد صحةٍ
فمن غيره يرجو طبيبا مداويا[48]

كما يشير ابو علي الروذباري(ت ٣٢٢هـ) إلى لطف الجنان فيقول:

أعراك بالحب حب في تحبيه
لطف الجنان وعطف في تغيبه[49]

وانقطع أبو الفوارس الصوفي، الحسين بن يلمش بن يزدمر التركي(ت ٥٣٢هـ) الى الله عدة سنين، فتواصلت لديه المحبة الصوفية بالجنون في قوله:

يا من أجن لها الفؤا د هوى سببا بالجنون[50]

وشاعت بجانب ذلك علاقة الجنون بالعابدات من أمثال ميمونة السوداء التي كانت عليها جبة صوف مكتوب عليها: لا تباع ولا تشترى[51]، كما أنشدت إحدى الجواري المتهمات او المتظاهرات بالجنون السري السقطي(ت ٢٥٣هـ) فقالت:

وجاوبني الحق من جناني
وكان وعظي على لساني

قريني منه بَعدَ بُعدٍ
وخصني منه اصطفاني

أجبت لما دعيت طوعا
ملبيا للذي دعاني

وخفت لما جننت فيه
ما يوقع الحب بالأماني[52]

توحد المرأة العابدة بين العبادة كدعاء والمحبة الإلهية حتى قادتها هذه المحبة الى جنون المحبين

فقالت جارية مجنونة ثانية:

زهـد الزاهدون والعابدون
إذ لولاهم أجاعوا البـــــــــطونا
اسهروا الأعين القريحة فيه
فمضى ليلهم وهم ســـــــــاهرونا
حيرتهم محبة الله حـــتى
علـــم النـــاس أن فيهـــم جنونـــا[53]

وهنا أصبحت المحبة الإلهية تخفي وصما بالجنون، فالعابدة المتصوفة ترى في الجنون خير تعبير عن خلاصها من حـــياتها الدنيوية وإحساســـها بالأغتراب فتحاول أن تعلن محبتها لله بإخلاص وتجرد، وخشية أن تمنع او يكبح جماح رغبتها، كانت تتظاهر بالجنون كي تحصل على مساحة ما من الحرية كما في قول ثالثة للسري السقطي:

معشر الناس ما جننت ولكن
أنا ســـكرانة وقـــلبي صاحـــي
قد غللتم يدي ولم آت ذنبا
غير هتكي في حبـــه وافتضاحـــي
أنا مفتونة بحبّ حبيبٍ
لســـتُ أبغي عن بابـــه من براحـــي
فصلاحي الذي رأيت فسادي
وفســـادي الذي رأيتم صلاحـــي[54]

تشـير هذه العابـدة إلى أن اتهامها بـالجنون جاء نتيجة الفهم الخاطئ لتفسير محبتها لله، هذا الحب الـذي صـار صـورة مـن صـور الحـب المحـرم، لأن المجتمع يقمع أي حب للمرأة فاصبح الجنون مهربا من ذلك القمع ومحاولة لممارسة أي نوع من الحب تفضي بـه هذه المرأة الزاهدة إلى نفسـها المشبـعة بالأسى والحرمان، لذا أصبـح الجنون تعبـيراً عن الحب الإلهي، ثم تبـــعته رؤى المتصوفة كالفناء والسكر الصوفي وهتك الحجب وتبادل الأفكار ولأن للمتصوفة فهمهم الخاص بمظاهر الأشـياء فلكل صحـــوه الخاص بـــه، ولربما جنونه الخاص وصلاحـــه الخاص. ولأن صحبـــة الله هي فوق مستوى الوعي والإدراك بوصفها صلة القلوب في نداءاتها المترامية بالأعماق بين الذات الإنسانية والخالق الكبـــير مما يجعلهم في تيه وتلبـــس خاصين، فقد كان التصوف علم القلوب والبواطن الذي يدفع العارفين نحو الاندماج الروحـــي مع الحق فينتزعه من مباهج الحياة المادية الزائفة وملذاتها المحسوســـة ويدفعه نحو عالم خاص لا يبلغه إلا من سلك الطريق وآمن بكتمان الخواطر واستســلم لصرعات الحب التي فسـرها الواقـع تفسيراً مختلفاً، فهذه جارية تصف الحب عند أحد مجانين التصوف في أن تقـول للمجنون: قـــم، فيقوم، ورمقته فقال الجني ويحك لا عدت إليه أبداً[55]. مما يشير إلى حقيقة تلبس الجن بالمحبين الذين هاموا وتجردوا من الاتصال الحســـي بالأخرين، لأنهم آثروا الاتصال بالجانب الروحي وغير الجسدي بالحب مما ينسجم مع حقيقة الصلة بين المتصوف والعاشق، فقد كان المتصوف يرى المحبة تجرداً عن الماديات وانغماساً عميقاً في الحب الإلهي، وهذا ما أشارت إليه إحدى العابدات بقولها:

لكَ علـم بمـا يجـنّ فؤادي
فارحـم ذلّي وذلـتي وانفـرادي[56]

قـادت الظروف العامة بـكل جوانبـها إلى انكماش فئات كثيرة من أبنـاء المجتمع وابـتعادهم عن جمهور العامة وإيثارهم حـــياة العزلة والزهد في عملية رفض ســـلبي للواقـــع فاتخذت التصوف

والعبادة، وبعضها أوغل في تحرره من هذا الواقع فاتخذ الجنون وسيلة من وسائل نقد الواقع وتعريته، والتعبير عن أفكاره بسلوكية المجانين بعيداً عن الرقابة بكل أشكالها، وبانفلات عن ضوابط السلوك الاجتماعي يمنح الإنسان مساحة من التعبير والاحتجاج أكثر مما يوفرها المجتمع أو توفره السلطة السائدة، فهذا بهلول المجنون، وهو بهلول بن المغيرة(ت،١٩٠هـ) صاحب مساجلات عديدة مع هارون الرشيد تشير الى وجود صراع خفي بين حياة الدعة والترف وبين حياة الزهد، بين الغنى والفقر، بين اللهو والعبادة، فكان إدعاء الجنون أو التظاهر به لدى هؤلاء المتصوفة نوعاً من الخلاص، في حين كان الجنون تهمة للتقليل من حجم واهمية النقد اللاذع الذي يشنه عقلاء المجانين من الصوفية على السلطة السياسية والاجتماعية سلوكا وشعراً[٥٥]. فقد كانت مواعظ بهلول وحكمه للخليفة ذماً للدنيا ولذاتها الفانية:

أف للدنيا فليست لي بدارِ
إنّما الراحة في دارِ القرارِ
أبت الساعاتُ إلاّ سرعةً
في بِلى جسمي بليلٍ نهارِ[٥٦]

أما سعدون المجنون، سعدون بن عمر(ت٢٥٠هـ) فأنه يقول عن جنونه: ((تزعمون أني مجنون وما بي من جنون، ولكن حب مولاي قد خالط قلبي وأحشائي وجرى بين لحمي ودمي وعظامي وأنا والله من حبه هائم مشغول))[٥٧]. فهو يشير إلى الحب الإلهي وصحبة الله عز وجل ويتذمر من صحبة الناس الذين وصفهم بالعقارب حين يقول:

خذ من الناس جانبا وأرض بالله صاحبا
قلت: الناس كيف شئـ ـت تجدهم عقاربا[٥٨]

فكان صاحب صحبة يهيم بها فتعتوره نوبات من الوجد تدفعه الى الانفصال عمن حوله، لأنه صام ستين سنة حتى خف دماغه فسماه الناس مجنونا لتردد قوله في المحبة[٥٩]. فكان يقول عن العارفين الذين عرفوا الله حق معرفته وتراموا في حبه حد التوحد:

قلوب العارفين تحن حتى
تحل بقربه في كل راح
صفت في ودّ مولاها فما أنّ
لها من ودّه أبداً براح[٦٢]

وسمي سمنون المجنون، سمنون بن حمزة(ت،٢٩٨هـ) نفسه بسمنون الكذاب بسبب أبيات منها قوله:

فليس لي سواك حظٌ
فكيف ما شئت فامتحني[٦٣]

وهو صاحب محبة لله، وعزلة خاصة تجرد فيها من مغريات الدنيا وآثر الزهد والتقشف والكفاف، أبتلي بعلة عسر البول، فكان يصبر ولا يجزع، ويطوف على المكاتب، ويقول: ((أدعو لعمكم الكذاب))[٦١]. ومن شعره في الحب الإلهي عند الصوفية قوله:

أهل المحبة ما نالوا الذي وجدوا
حتى بسيدهم في الخلوة انفردوا
تراهم الدهر لا يمضون من بلدٍ
إلاّ ويبكي عليهم ذلك البلد[٦٥]

تقترن المحبة لله بالخلوة عند الصوفية والانقطاع التام لسلوك الطريق وبالسياحات والرياضات التي توصلهم إلى حالة من التجرد التام عن كل ما يحيط بمغريات الحياة، لهذا عبروا عن حياتهم

الخاصة خير تعبـــــــير في نفثاتهم الوجدانية المتدفقـة التي كان الشـعر واحـداً من روافدها المهمة.

الخاتمة:

شـكل الجنون في الشـعر العربـي ظاهرة، مثلما شـكلت ظاهرة الجنون في الشـعر الصوفي ملمحـا وصفيا لمجموعة من الشعراء الذين اتصل سلوكهم وشعرهم بموقف خاص جعل الجنون تعبيراً إشاريا وموقفا اجتماعيا وسياسيا يرفض كل ما يتعارض مع مصلحـة المجتمع، فكان رفضاً خفياً للواقـع ولممارسـات المجتمع البـعيدة عن روح المصلحـة الصادقـة للأكثرية المستلبـة، فكان موقـف بـهلول المجنون يتصف بالجرأة والصراحة، لأنه يرفض مباهج الحياة المادية ويدعو الى اسـتذكار الحياة الآخرة والعمل على التزود بالتقـوى، ويتجه باتجاه التعبير عن الحب الإلهي بما يكشف عن ملامح التجربـة الشعرية المرتبطة بالطريق الصوفي وذلك باتخاذ الجنون وسـيلة من وسـائل التحـرر والانفلات من ضوابـط السلطة والمجتمع، وهذا ما جعل الشعر والسلوك يتلازمان في كشـف خفايا هذه التجرة الإنسـانية الفريدة تجربـة شـعر عقـلاء المجانين عبر تركيبـة خاصة من الوعي واللاوعي والظاهر والباطن، والخاص والعام، وهي تسلك سبيل النقد اللاذع للحياة المادية: الموصوف بـالتخليط تجنبـاً لاحـتدام الصدام المباشر بـين السلطة والمجتمع من جهة وبـين عقلاء المجانين من جهة ثانية حـتى غدا هذا الشـعر تعبـيراً عن شاعرية مختلفة تماماً عن الشعر العربي لغة وسلوكاً وأفكاراً، وإن بقي شعر المجانين يتصل اتصالاً واضحاً بالشعر الصوفي ويلتزم بضوابـطه الفنية وموضوعاته في التخاطر والسـكر الصوفي والحب الإلهي واعتزال العامة وإيثار التجربة الذاتية الخاصة فكان هذا الشـعر تعبـيراً عن المعرفة الصوفية والمكاشفات والإشارات الخفية، وهرباً من ظروف وضوابط خانقة جعلت الصوفي يدعي الجنون، أو جعلت المجتمع يتهمه به، وهو في هذا يدين واقعاً ليؤسس تجربته الخاصة المرهونة بالمجاهدات والرياضات الروحية من هنا كانت هذه الظاهرة تكشـف عن وضع اجتماعي ونفسـي خاص، وعن سـلوك لطريق يرفض واقـعاً مفروضاً فيتمرد عليه بـالصمت وإعلان الجنون والتزام الزهد ونقـد الترف حـد تقـديم الموعظة لأولياء الأمر.

الهوامش

(١) لسان العرب (جنن).
(٢) نفسه (عبقر).
(٣) ربيع الأبرار: ١/٣٨٣.
(٤) الأغاني: ١٠/٣١٠.
(٥) لسان العرب: (شصب)، ربـيع الأبـرار: ١/٣٨٤، جمهرة أشعار العرب: ١/٤٧، الحيوان: ٦/٢٢٧.
(٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦/٢٢٦.
(٧) الشعر والشعراء: ٢/٤٦٧.
(٨) الأغاني: ٢/٣٣.
(٩) نفسه: ٢/٤٤-٤٥.
(١٠) مصارع العشاق: ١/١٢٥.
(١١) الأغاني: ٢/١٠.
(١٢) مشارق أنوار القلوب: ص٩٨-٩٩.
(١٣) مصارع العشاق: ١/١٢٦.
(١٤) نفسه: ٢/٢٥.
(١٥) الأغاني: ١/١٤٤.
(١٦) نفسه: ٢٣/٣٠٦.
(١٧) الأغاني: ٢٣/٥٦-٦٠، فوات الوفيات: ٤/٣٢.
(١٨) مصارع العشاق: ١/٩٨.
(١٩) تزيين الأسواق: ١/٢٢١.
(٢٠) الوافي بالوفيات: ١٦/٤٤.
(٢١) نفسه: ١٦/١٢١.
(٢٢) الأغاني: ٢٠/١٤٨، الوافي بالوفيات: ١١/١٦٩.
(٢٣) الأغاني: ٢٠/١٥٣.
(٢٤) الأغاني: ٢٠/١٥٠، الوافي بالوفيات: ١١/١٦٩.
(٢٥) الأغاني: ٢٠/١٥١، الوافي بالوفيات: ١١/١٦٩.
(٢٦) الأغاني: ٢٠/١٥٠، الوافي بالوفيات: ١١/١٧٠.
(٢٧) الأغاني: ٢٠/١٤٩.

(٢٨) الأغاني، ٢٠/٢٢٤، تزيين الأسواق: ١/٢٢٢.
(٢٩) الأغاني: ٢٠/٢٢٥، تزيين الأسواق: ١/٢٢٢.
(٣٠) الرمز الشعري عند الصوفية: ص١٢٤.
(٣١) المعجم الصوفي: ص٢٧٩.
(٣٢) عقلاء المجانين: ص٦٩.
(٣٣) إحياء علوم الدين: ٩/١٩٢.
(٣٤) مصارع العشاق: ١/١٧٢.
(٣٥) صفوة الصفوة: ١/٥١٩، الوافي بالوفيات: ١٤/٢٧.
(٣٦) ديوانه: ص١٧٠.
(٣٧) نفسه: ص١٩٩.
(٣٨) الرمز الشعري عند الصوفية: ص١٣٥. راجع مصارع العشاق: ١/٣٣-٣٤.
(٣٩) الروض الفائق: ص١٢٩.
(٤٠) قوت القلوب: ٢/١٤٢.
(٤١) الأنوار القدسية: ١/٨٢.
(٤٢) قوت القلوب: ٢/١٣١.
(٤٣) صفة الصفوة: ٤/٢٤٩.
(٤٤) الروض الفائق: ص٢٢٩.
(٤٥) نتائج الأفكار: ٤/٨٢.
(٤٦) صفة الصفوة: ٤/٣٥٠، حلية الاولياء: ١٠/١٤٥.
(٤٧) المنتظم: ٦/٢٣٥.
(٤٨) اللمع: ص٣٢٣-٣٢٤، مصارع العشاق: ١/٢٧٥.
(٤٩) اللمع: ص٣٠٧.
(٥٠) الوافي بالوفيات: ١٤/٨٣.
(٥١) صفة الصفوة: ٢/٩٣.
(٥٢) روض الرياحين بهامش قصص الأنبياء للثعلبي (العرائس): ص٣٠.
(٥٣) صفة الصفوة: ٤/٥١.
(٥٤) روض الرياحين: ص٢٨.
(٥٥) تزيين الأسواق: ١/٤٩.
(٥٦) نفسه.
(٥٧) ينظر شعره الموجه الى الرشيد: علم القلوب: ص٦١-٦٢، الطبقات الكبرى: ١/٥٨، صفة الصفوة: ٢/٥١٧.
(٥٨) صفة الصفوة: ٢/٥١٧، عقلاء المجانين: ص٧٧ في ترك الحرص.
(٥٩) روض الرياحين: ص١٩٤.
(٦٠) نفسه.
(٦١) تزيين الأسواق: ١/٤٣.
(٦٢) عقلاء المجانين: ص٦٢.
(٦٣) الرسالة القشيرية، ص٣٦، مصارع العشاق: ١/٥٠.
(٦٤) الرسالة القشيرية: ص٣٧.
(٦٥) عقلاء المجانين: ص١٠٦.

مصادر ومراجع البحث

* إحياء علوم الدين، الغزالي، مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦هـ.
* الأغاني، الأصفهاني، دار الثقافة بيروت، د ت .
* الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، الشعراني، تحقيق: سرور والشافعي، المكتبة العلمية، بيروت، د .ت.
* تزيين الأسواق في أخبار العشاق، الأنطاكي، دار حمد ومحيو، بيروت ١٩٧٢م.
* جمهرة أشعار العرب، القرشي، تحقيق: البجاوي: دار نهضة مصر، القاهرة، د ت.
* ديوان الشبلي، تحقيق: مصطفى الشيبي، دار التضامن، بغداد، ١٩٦٧م.
* ربيع الأبرار، الزمخشري، تحقيق: سليم النعيمي،
* الرسالة القشيرية، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٦ م.
* الرمز الشعري عند الصوفية، عاطف جودة نصر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٨م.
* روض الرياحين في حكايات الصالحين، اليافي، بهامش قصص الأنبياء للثعلبي المعروف بـ(العرائس) مكتبة القاهرة، د ت.
* الروض الفائق في المواعظ والرقائق، الحريفيش، المكتبة الثقافية، بيروت ١٩٧٢م.

* الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الثقافة، ط٤ بيروت، ١٩٨٠م.
* صفة الصفوة، ابن الجوزي، تحقيق: فاخوري، دار الوعي، القاهرة، د.ت.
* الطبقات الكبرى، الشعراني، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، د. ت.
* عقلاء المجانين، النيسابوري، تعليق: وجيه الكيلاني، المطبعة العربية بمصر، ١٩٢٤م.
* علم القلوب، المكي، تحقيق: عبد القادر عطا، شركة الطباعة الفنية المحدودة، القاهرة ١٩٦٤م.
* فوات الوفيات، الكتبي، تح: احسان عباس، مراجعة: سعيد مكارم، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.
* لسان العرب، ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.
* اللمع، السراج الطوسي، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه سرور، مطبعة السعادة، ١٩٦٠م.
* مشارق أنوار القلوب، ابن الدباغ، تحقيق: ريتر، دار صادر - بيروت، د.ت.
* مصارع العشاق، السراج القارئ، دار صادر، بيروت، د.ت.
* المعجم الصوفي، سعاد الحكيم، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨١م.
* المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨م.
* المنتظم، ابن الجوزي، الشركة الوطنية، بغداد، ١٩٩٠م.
* نتائج الأفكار القدسية، العروسي، دمشق، د.ت.
* الوافي بالوفيات، الصفدي، ج١١، تحقيق: شكري فيصل، بفيسبادن، ١٩٨١، ج١٤، تحقيق: ديدرينج، بفيسبادن ١٩٨٢.